

المحاضرة الثانية

لغة الخطاب القرآني

الدكتور عودة أبو عودة  
جامعة العلوم الإسلامية العالمية

الأربعاء 16 محرم 1435هـ- الموافق 20 تشرين الثاني 2013م

الخطاب القرآني  
مبادئ وأساليب وشواهد  
مقدمة البحث  
بسم الله الرحمن الرحيم

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا  
الكهف: ١ - ٢.)

(بَارِكِ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) الفرقان: 1.

الحمد لله الذي وصف كتابه الكريم بقوله تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى  
قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) الشعراء: 192\_195.

وبعد،

فقد أعلنت لجنة الندوات والمحاضرات في مجمع اللغة العربية الأردني عن  
موضوع الموسم الثقافي الواحد والثلاثين للمجمع، الذي تقرر عقده في أيام  
19\_21 من أواخر شهر تشرين الثاني من عام 2013م، واختارت له موضوعاً  
مهماً، عنوانه: "لغة الخطاب في العصر الحديث: المشكلة والحل". وحددت محاور  
البحث فيه، وعندما استقر الأمر على هذا الموضوع أعلنت عن رغبتني في  
المشاركة فيه ببحث عن: "الخطاب القرآني: مبادئ وأساليب وشواهد".

ولعله من المناسب قبل أن أبدأ تفصيل القول في الخطاب القرآني، أن أبين  
بعض الحقائق والتعريفات عن مصطلح الخطاب بشكل عام.

فقد انشغل علماء اللغة المعاصرون، وبخاصة ما كان من علماء الغرب  
ومدارسه اللسانية الحديثة بمفهوم الخطاب، وجعلوا الحديث عنه متصلاً بالدراسات

اللسانية الحديثة، التي يعد دي سوسير<sup>(١)</sup>، الرائد الأول لها، وهو أول من تنبه من علماء الغرب بأن اللغة نظام من الرموز والدلالات الذهنية، يعبر عنها اللسان، وهذه أهم الثنائيات التي نادى بها، ثنائية الدال والمدلول، وقد أطلق عليه العلماء لقب (أبو اللسانيات الحديثة)<sup>(٢)</sup> من أجل هذه النظرية التي نادى بها.

بعد هذا انطلقت الدراسات في كل اتجاه فدرست الخطاب من جهة المنطق والعقل والفلسفة، وكان لأندريه لالاند، وميشال فوكو حضور متميز في هذا المجال، يقول لالاند: "إن الخطاب عملية فكرية جزئية متتابعة، وعلى نحو خاص هو تعبير عن الفكر وتطوير له بسلسلة كلمات أو عبارات متسلسلة"<sup>(٣)</sup>.

أما ميشال فوكو فيرى في كتابه (نظام الخطاب) أن الخطاب مصطلح لساني متميز عن النص والكلام والكتابة وغيرها بشموله لكل إنتاج ذهني، سواء أكان شعراً أم نثراً، منطوقاً أم مكتوباً، فردياً أو جماعياً، ذاتياً أو مؤسسياً..."<sup>(٤)</sup>.

ويلاحظ بوضوح النزعة العقلية المنطقية في هذه التعريفات، الأمر الذي جعل اللسانيين يبحثون في مفهوم الخطاب من وجهة نظرهم اللغوية، فمنهم من قال: إن

---

(١) ولد دي سوسير عام 1856م، وتوفي عام 1913م، وبعد هذا التاريخ انتشرت الدراسات اللغوية في كل أنحاء الغرب، وتتبع المدارس اللسانية الحديثة، من المدرسة البنيوية إلى مدرسة براغ فكونهاجن فلندن، ثم تحولت إلى أمريكا، حيث عرف هناك عدد من العلماء الكبار، وأشهرهم تشومسكي، صاحب النظرية التوليدية التحويلية، وهو مازال يراجع نظريته ويطورها وفق ما يقدمه العلماء في الغرب والشرق من ملاحظات علمية، ومناقشات موضوعية، وقد ولد تشومسكي عام 1928م، ومازال حياً يرزق.

(٢) انظر: مدارس اللسانيات: التسابق والتطور، جفري سامسون، ترجمة د. محمد زياد كبة، جامعة الملك سعود، الرياض، 1994م، ص 27

(٣) موسوعة أندريه لالاند الفلسفية، ص 287

(٤) نظام الخطاب، ميشال فوكو، ص 9

الخطاب وحدة تساوي أو تفوق الجملة، مكونة من وحدة متتالية تشكل رسالة ذات بداية ونهاية<sup>(١)</sup>.

وتعددت آراء اللغويين في مفهوم الخطاب، فتحدث عنه ياكبسون، وهاريس، وفان دايك، وبوجراند، وكثير غيرهم، وقد جمع هؤلاء بين مفهوم النص ومفهوم الخطاب، للصلة الوثيقة بين المصطلحين، وألفت في ذلك بحوث ودراسات كثيرة منها:

\_ المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، لنعمان بوقرة.

\_ لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، لمحمد خطابي.

\_ لسانيات النص، نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، لأحمد مداس.

\_ النص والخطاب والإجراء، لبوجراند، ترجمة: د. تمام حسان.

ومن هذه الدراسات وغيرها يتبين لنا أن الخطاب هو صورة لغوية، منطوقة أو مكتوبة، تعمل على نقل الدلالات والمعاني من متكلم أو كاتب إلى سامع أو قارئ، يرافقها كل ما يسهم في أداء المعنى من وسائل مباشرة، وإشارات مفهومة بين المخاطب الفاعل، والمخاطب المفعول<sup>(٢)</sup>.

وعلى هذا يمكن أن يكون الخطاب بالكلام، وبالكتابة، وبالإشارة، وبحركات

الوجه واليد والجسم بشكل عام، ويمكن كذلك باستخدام أسماء الأصوات التي

يصطنعها بعض الناس من أجل إيصال فكرة أو معنى للسامعين. ومن ذلك ما رآه

أحد الباحثين في قوله تعالى: (وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۗ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ)

يوسف: ٢٣؛ إذ رأى أن (هيت لك) هو صوت استدعاء لهذا الأمر الذي يكون بين

الرجل والمرأة، وقد جاء به القرآن الكريم على هذه الصورة التي لم تعرفها اللغة

---

(١) لسانيات النص، أحمد مداس، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2007م، ص10.

(٢) سأعتمد في هذا البحث وفي غيره مصطلح (المخاطب الفاعل)، و (المخاطب المفعول) بديلاً عن

(المخاطب بكسر الطاء) و (المخاطب بفتح الطاء)؛ لأنني وجدته أكثر سهولة وأحسن بياناً.

العربية من قبل نزول القرآن، وذلك أدب رفيع من أدب الشريعة الإسلامية، وأدب كتابها الكريم، وذلك أن هذا الأمر الذي يتحدث عنه القرآن من شأنه أن يكون سراً بين الرجل والمرأة، لا يطلع عليه غيرهما، إنها لغة يفهمها الزوجان، سواء أكانت بإشارة أم بعبارة، هذا هو المفهوم الذي يعطيه هذا الصوت (هيئة لك). ودع عنك ما ذهب إليه الذاهبون من تأويلات وتخريجات لكلمة (هيئة لك)، وخذاها على أنها حكاية صوت مصحوبة بإشارة يد أو لحظة عين، لا على أنها من لغة التخاطب المتعامل بها في قاموس اللغة، إنها في مقامها هنا كلمة استدعاء وإجراء، وكفى<sup>(١)</sup>.

هذه إشارة سريعة إلى ما يمكن أن يكون عليه الخطاب القرآني من أساليب متنوعة للخطاب، فيمكن أن يكون باللغة مباشرة بين المرسل والمتلقي، كتابة أو كلاماً<sup>(٢)</sup>، ويمكن أن يكون من خلال إدراك أسرار الحروف، والمفردات، والتراكيب، وما تحمله من إشارات ودلالات في اختيار حرف دون حرف، أو كلمة دون أخرى، أو ترتيب الكلام وفق القواعد الأساسية، أو ما يتطلبه الموقف من تقديم وتأخير، أو تعريف وتكبير، أو إفراد وجمع، أو المخالفة بين الصيغ الفعلية، وهكذا كثير. ولكنني في هذه المقدمة من هذا البحث، رغبت في تقديم فكرة عامة عن مفهوم الخطاب وعناصره، حتى تكون القاعدة مهياً للحديث عن ألوان الخطاب في القرآن الكريم وصوره المتعددة.

---

(١) عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منظوقه ومفهومه، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، ص424\_425

(٢) أقصد بهذه الملاحظة أن الآيات القرآنية قد تتحدث بلسان أشخاص قالوا أو كتبوا لغيرهم ما يريدون إبلاغه لهم، كرسالة ملكة سبأ إلى سليمان عليه السلام.

## عناصر الخطاب

ومن البدهي أن يكون المرسل أو المخاطب الفاعل هو العنصر الرئيسي في مشروع الخطاب الإنساني، وهو ينشئ كلامه مسموعاً أو مقروءاً للتعبير عن آرائه ومواقفه ورغباته في شتى شؤون حياته، ولا يتسع المقام هنا أن نعد ما يمكن أن يكون بين المخاطب الفاعل وغيره من الناس من شؤون وقضايا وأعمال لا تنتهي، أو ما عبر عنه المتنبي: وفضول العيش أشكالاً.

أما عندما يكون المرسل أو فاعل الخطاب هو الله عز وجل في كتابه الكريم، فإن أهداف الخطاب تختلف كلياً شكلاً ومعنى عن أهداف المخاطب الفاعل من أفراد المجتمع وعامة الناس، فالله عز وجل: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۗ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) الحشر: ٢٢ وهو عز وجل رب الناس، ملك الناس، إله الناس، وكل ما ورد في القرآن إنما هو تشريع لله عز وجل لبناء الدين القيم الذي يرسم للناس كل ما يهمهم في أمر دنياهم وأخراهم.

وفي الدراسات العربية التي اهتمت بموضوع الخطاب والنص قديماً وحديثاً، فقد انطلقت في معظمها من تحليل مادة (خطب) في معاجم اللغة، واستعمال القرآن الكريم.

أما معاجم اللغة فقد ذكرت أن (خَطَبَ) مصدرها الخَطْبُ، وهو الشأن أو الأمر صغر أم عظم<sup>(١)</sup>، أما خاطبه، وهي اسم الفاعل من الثلاثي خطب، فمعناه كالمه وحادثه، ووجه إليه كلاماً وحديثه بشأنه<sup>(٢)</sup>. والخطبة يضم الخاء اسم للكلام الذي يتكلم به الخطيب على المنبر<sup>(٣)</sup>، والخطاب هو الكلمة الجامعة لهذه المادة،

(١) انظر: لسان العرب، مادة خَطَبَ.

(٢) المعجم الوسيط، مادة خَطَبَ.

(٣) لسان العرب، مادة خَطَبَ.

وهي التعبير الذي شاع الآن في الكتابات اللسانية عموماً. وهو عند ابن منظور مصدر للفعل خاطب، بمعنى مراجعة الكلام. وهو عند أبي البقاء الكفوي في الكليات: الكلام اللفظي أو النفسي الموجه نحو الغير للإفهام<sup>(١)</sup>.

وفي هذا التعريف الأخير تطور لمفهوم الخطاب وأثره في الناس؛ فقد تحدث عن الأثر النفسي عند المستمع أو المتلقي بشكل عام، وهذه نظرة متطورة، سنجد لها تحققاً واسعاً في آيات القرآن الكريم عند الحديث عن الخطاب القرآني. ولم تزد المعاجم اللغوية والدراسات السابقة عن هذه المعاني لمادة (خطب) وما اشتق منها. أما في القرآن الكريم فقد وردت مادة خَطَبَ في اثني عشر موضعاً، تمثلت في المشتقات التالية:

\_ خاطبهم: (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) الفرقان: 63.

\_ تخاطبني: (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ) هود: 37.

\_ تخاطبني: (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ) المؤمنون: 27 .

وتلاحظ أن هذه الآية تكررت بنصها مرتين في سورتي هود والمؤمنون، وكانت خطاباً لسيدنا نوح عليه السلام بشأن القوم الذين ظلموا من قومه ولم يستمعوا إلى دعوة نبي الله لهم بالإسلام.

\_ خطبك: ( قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ) طه: 95.

\_ خطبكم: (قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ) الحجر: 57.

\_ خطبكم: (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ) الذاريات: 31.

---

(١) الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء الكفوي، القسم الثاني، ص486

وهذه الآية أيضاً تكررت مرتين في سورتَي الحجر والذاريات، وهي على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام في مخاطبة الملائكة الذين تمثلوا له في صورة بشر من الناس.

\_ خطبكما: (قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي إِلَّا نُسُقِيَّ الرَّعَاءِ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) القصص: 23.

\_ خطبكن: (قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ) يوسف: ٥١.

\_ الخطاب: (وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ) ص: 20.

\_ الخطاب: (فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) ص: 23.

\_ خطاباً: (رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا) النبأ: 37.

\_ خطبة: (لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ) البقرة: ٢٣٥.

ولدى دراسة هذه الآيات الكريمة، وتدبرها في السياق القرآني الذي وردت فيه كل آية، وجدنا أن مادة خطب وما اشتق منها في القرآن الكريم، من الخطب الذي تردد خمس مرات والخطاب الذي تردد ثلاث مرات، والفعل خاطب ومضارعه تخاطب وقد تكرر ثلاث مرات، ثم كلمة (خطبة) بكسر الخاء\_ وقد وردت مرة واحدة. إن هذه المادة تدور في فلك الأمر المهم والشأن الكبير والموقف العظيم الذي له صلة بالعدد الكبير من الناس، أو له تأثير في الفكر الذي يحمله الناس أو يحاول الأنبياء أن يوصلوه لهم. إن الخطاب ليس كلاماً عادياً بل هو مواقف لها شأن في حياة الناس.



ولعل من أجمل ما قرأت في هذه الفكرة، أو في التعليق على دلالة الخطاب في الدراسات العربية الحديثة، ما قاله مختار الفجاوي في كتابه (خطاب العقل عند العرب)، لنستمع إليه يقول:

"وبناء على ذلك فالآيتان إضافة إلى أنهما أشارتا إلى اقتران (الخطب) باعتباره شأنًا ورضاً بمصطلح (الخطاب)، فإنهما بيّنتا أن دلالة (الخطب) لا تحمل فقط الأمر العادي، أو الشأن اليومي للأفراد من الناس، وإنما تحمل دلالة أمر خارق للعادي، وشأن عظيم، هو شأن كل الناس. وهذا الشأن العظيم هو بالتعبير الحديث (المشروع الحضاري)، وهو بتعبير القرآن (الرسالة)؛ فالرسالة ليست مجرد كلام فحسب، بل هي كلام حامل لمشروع، والرسالة السماوية هي مشروع مخلص للبشرية من العذاب الذي تردت فيه بسبب خياراتها الوضعية، إذن الرسالة (خطاب)، والخطاب مشروع حضاري، وكل هذه الدلالات تولدت من معنى (الخطب) (١).

ولا ينبغي أن يفهم من هذا أن الخطاب يقتصر على الكلام الشفوي الذي يتحدث به الناس، فالخطاب يمكن أن يكون أيضاً من خلال النص المكتوب الذي ينتقل من مرسل إلى مرسل إليه (٢).

ويرى منير البعلبكي أن الخطاب يطلق على الكلام المنطوق خاصة، أو المكتوب، وعلى الحوار عندما يتجاوز الجملة الواحدة (٣).

---

(١) خطاب العقل عند العرب، مختار الفجاوي، المطبعة العصرية، تونس، الطبعة الأولى، 1993، ص 48\_49.

(٢) انظر معجم المصطلحات اللغوية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص 159.

(٣) معجم المصطلحات العربية، رمزي البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1990، ص 153.

ولعل هذه الفكرة الأخيرة تتجسد حقيقتها عند التأمل في كتاب الله العزيز عندما شاعت الحكمة الإلهية أن ينزل الكتاب في صورة قرآن يقرأ وينتلى على الناس، ويحفظه الناس ويتناقلونه عبر العصور بطريق الحفظ والتلاوة والترتيل لا عن طريق الكتابة والحفظ من السطور.

يقول الله عز وجل في أول سورة يوسف: (الرَّ َّ تَلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) يوسف: ١ - ٢ .

ويقول سبحانه في أول سورة فصلت : (تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ) فصلت: ١ - ٣ . فالقوم الذين يعقلون \_إذن\_ والذين يعلمون، يدركون ما الحكمة الإلهية في إنزال الكتاب قرآنًا عربيًّا.

هذا القرآن الكريم هو الذي يحدد الفرق الدلالي بين مصطلحي (الكتاب) و(القرآن)، وقد أمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقرأ كما أنزل عليه، وكما قرئ عليه تماماً، قال الله عز وجل: (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ) القيامة: 16\_19.

فالخطاب القرآني \_إذن\_ يكون بطريق التلاوة، والترتيل، ويكون بالكتابة، ويكون بالحوار، ويكون بالسرد في عرض المعاني والأفكار، وخلال السرد تتعدد المعاني والأفكار، والعواطف والانفعالات، والتصوير والتجسيم، كما أن للقصص القرآني أثراً كبيراً في الإبلاغ والتذكير ونشر الدعوة.

وإن أساليب الخطاب تتنوع كثيراً في القرآن الكريم وفق هذه الصورة الكلية التي سبقت الإشارة إليها؛ فأساليب الدعاء والرجاء والأمر والنهي والنداء، كل أولئك من صور الخطاب القرآني، وكذلك أساليب العرض والتفصيل والسرد من أساليب

الخطاب القرآني، وأساليب الحوار والقصص والتمثيل والتصوير أيضاً من أساليب العرض المؤثرة في إبلاغ الفكرة المقصودة والمعنى المرجو من النصّ.

ولذا، فإن كل ما يرد في القرآن الكريم من أوامر ونواهٍ، وقصص وعبر وتشريع وأحكام، وحديث عن الإيمان والكفر، والطاعة والعصيان، إنما هو تصوير لما يجري في هذه الحياة الدنيا من صور الحياة المختلفة ليعتبر من يعتبر، ويحيا من حيّ عن بيئته، وهذا هو الأمر الذي ينبغي أن يلاحظ عند الحديث عن القرآن الكريم، أن المخاطب الفاعل هو الله عز وجل، وأنه العليم الحكيم في كل ما يشرعه ويأمر به، وينهى عنه، وحتى إذا كان الخطاب في الآيات القرآنية على لسان أحد خلق الله من الرسل والأنبياء وعامة الناس، في أي شأن من شؤون الحياة، فإنه يكون في الصورة العليا من التعبير والإبلاغ، لا مجال فيها للحديث عن نقص أو عيب أو خطأ، وهذه أيضاً إحدى سمات الخطاب القرآني وخصائصه.

إن هذه النظرة التي ينظر بها كثير من المختصين في هذا العصر، إنما هي عقبة كؤود في سبيل طريق المعرفة والحضارة الإنسانية المتطورة دوماً، التي تسافر متنقلة في القرون، يسهم فيها كل شعب بنصيب، وكل قرن بطرف، يقل أو يكثر، وبهذا تتطلق المعرفة غير متوقفة عند أحد، ولا آبهة بنظرات المتعصبين الضيقة سواء أكانت لحضارتهم هم، أم للحضارات الأجنبية التي يؤمنون بها، أو يزدرونها، فالفريقان سواء \_ بكل تأكيد \_ في إعاقة المسيرة الإنسانية في تشكيل العلم والحضارة على مرّ العصور.

إن الخطاب بمفهومه العام حقيقة إنسانية فطرية، فالإنسان في هذه الأرض يمارس حياته الواقعية بكل ما تشمله من أنماط السلوك الإنساني، وما يعبر عن هذا السلوك من أقوال وأفعال، يتبادل الناس تحليلها وتفسيرها، ويتداولونها في مسارات حياتهم المتطورة المستمرة.

إن الكلمة هي الوسيلة الأولى للاتصال والتواصل الإنساني، وإن التخاطب بين الناس، باللسان أو بالقلم، على مستوى الأسرة، والمجتمع، والأمة، والشعوب المختلفة في أقطارها العديدة، وأزمانها المديدة، هو السمة الأساسية التي تجمع الناس، وتبني بينهم العلاقات الإنسانية في مجالات الحياة المختلفة.

والقرآن الكريم، أنزله الله عز وجل للناس كافة، لا للمسلمين وحدهم، أو للعرب وحدهم، بل هو الكتاب الإلهي الآخر للناس كافة، حمله رسول الله \_ صلى الله عليه وسلم\_ وبشّر به رحمة للعالمين، يقول الله عز وجل: (الر ۙ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ، أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ) يونس: 2\_1.

فكلمة (الناس) التي تكررت في هذه الآية مرتين، تدل دلالة قاطعة على أن القرآن الكريم نزل للناس جميعاً، وأنه حجة عليهم عند ربهم. وفي هذه الآية الكريمة يبدو واضحاً أركان الخطاب مكتملة، ففيها المخاطب (الفاعل) وهو الله عز وجل، وفيها المخاطب (المفعول) وهم الناس جميعاً، وفيها موضوع الخطاب، أن أنذر الناس، وبشّر الذين آمنوا بالجزاء الأوفى عند الله. وهذه العناصر الأساسية في الخطاب القرآني، تكاد تكون النسبة الغالبة لصور الخطاب في القرآن الكريم.

وهذه الصورة الأكثر حضوراً، والأعلى مثلاً في شأن المخاطب (الفاعل) <sup>(١)</sup>، وهو الله عز وجل، تكررت في القرآن الكريم في عشرات الآيات. وقد ورد تعبير (يا أيها الناس) في القرآن خمس عشرة مرة، وتعبير (يا أيها الذين آمنوا) أربعاً وثمانين مرة، منها على سبيل التمثيل:

\_ (يا أيها الناس اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ) البقرة: ٢١.

\_ (يا أيها الناس كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا) البقرة: ١٦٨.

\_ (يا أيها الناس قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ) النساء: ١٧٠.

ومنها أيضاً:

\_ (يا أيها الذين آمنوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) البقرة: ١٧٢.

\_ (يا أيها الذين آمنوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) آل عمران: 200.

\_ (يا أيها الذين آمنوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) المائدة: ١.

\_ (يا أيها الذين آمنوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) الأحزاب: 56.

يتضح من هذه الآيات الكريمة أنّ الله عز وجل يخاطب الناس جميعاً، ويخاطب الذين آمنوا بكل ما تقتضي الحكمة الإلهية من إبلاغه للناس، وفي كل شؤون الحياة، ولهذا رأيت أن كل ما يتعلق بالخطاب، من أسس وخصائص ومناهج وأساليب يجده الدارس المنصف والباحث المحقق في القرآن الكريم؛ لأنه الصورة العليا من التعبير باللغة العربية، والصورة الكاملة للتكامل التام بين اللفظ

---

(١) سأستعمل فيما يلي من هذا البحث وفي غيره من البحوث مصطلح (المخاطب الفاعل) بين قوسين للدلالة على المخاطب بكسر الطاء، و(المخاطب المفعول)، للدلالة على المخاطب بفتح الطاء.

والمعنى، والشكل والمضمون، كما يقولون في علم النقد والبلاغة. وهذا هو الفرق الأساسي بين القول البشري، حتى لو كان في أسمى صورته كما هو الشعر الجاهلي، وبين النص الإلهي المعجز، كما نراه في القرآن الكريم، والنص النبوي المحكم كما هو في الحديث الشريف، الذي وصفه الله عز وجل بأنه (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ) النجم: 3\_4.

هذه حقيقة ينبغي ألا تغيب عن علم أي أحد من الناس. فالقول البشري يمكن أن يعجب الناس أياً إعجاب، ويطربهم ويهز مشاعرهم، فيقبلونه بالمدح الثناء. ولكنه في النهاية سيظل قولاً بشرياً مليئاً بالنقص والمبالغة والقصور والتناقض. إن الشاعر ليمدح فيصف الممدوح بكل الصفات والمثل العليا، وهو في قرارة نفسه يعلم أن الممدوح ليس على شيء من هذا، وإن الشاعر ليرثي ويتحزن، ويصف (الفقيد) بكل الصفات العالية، والأمجاد التي لا تجارى، وهو يعلم يقيناً أن (الفقيد) كان على النقيض من ذلك تماماً.

وإن الشاعر ليتغزل، وإن الشاعر ليصف، ويهجو، ويحب، ويكره، وكل ذلك لا يقوم على أساس ثابت، ولا على قاعدة صحيحة، وتمضي الأيام، ويذهب الشعراء، وتنقطع أخبارهم، وتفنى أقوالهم، إلا من بعض القصائد التي تخلد لجمال التعبير فيها، وبراعة الشاعر في تصوير أفكاره وتزيينها. أما المضمون فقد تلاشى، وأما المبدعون فقد فنوا. وإلا، فأين زهير ابن أبي سلمى وهم بن سنان، وأين امرؤ القيس ودارة جلجل، وأين عنتره وعبله، وأين جرير والفرزدق والأخطل والخلفاء الأمويون، وأين المتنبي وسيف الدولة، وأين شوقي والخديوي إسماعيل؟ كل هؤلاء ذهبوا، وظلت أسماؤهم سطوراً معدودة في الكتب.

أما القرآن الكريم فهو الصدق الصراح، وهو الحق الخالد، وهو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الذي قال الله عز وجل فيه: (أَفَلَا

يَنْدَبُرُونَ الْقُرْآنَ ۖ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ( النساء: 82).

إذاً، فإننا نقول بيقين: إن كل شيء من عند الله هو الحق المبين، والصرط المستقيم، والعلم القويم، والخبر اليقين، وهذه في الحقيقة أول خصيصة، بل هي الأساس المتين لبناء الخطاب القرآني على مرّ العصور.

وفي الدراسات الحديثة التي اهتمت بالحديث عن الخطاب، وبيان مفهومه وعناصره، وخصائصه، وجدت وصفاً عميقاً لحقيقة الخطاب الإنساني، ولكن هذا الوصف يتحدث عن خطاب الإنسان للإنسان، وهو عرضة لأن يعتره ما يتعرض له الإنسان من مضايقات، وتقييد لحرية القول، سواء أكان هذا من عند المسؤولين، أو من تحكم الظروف الاجتماعية، والعادات المستحكمة في حياة الناس. يقول مختار الفجاوي في حديثه عن وجهة نظر ميشال فوكو عن الخطاب: "والخطاب عند فوكو \_ كما نظر له \_ كلام مقموع؛ فالمتكلم لا يقول ما يريد، بل يقول ما يجب أن يقال"<sup>(١)</sup>. ثم ينقل له نصاً وافياً، يقول فيه: " نعلم جيداً أنه ليس الحق في قول كل شيء، ولا الحديث عن أي شيء، في أية مناسبة، وأن أي شخص لا يستطيع أن يتحدث كيفما اتفق في نهاية المطاف. ثمة قدسية الموضوع، وطقوس المقام، وحق الأفضلية، أو حق التفرد الذي يتمتع به الشخص المتحدث، نحن هنا بإزاء ثلاثة أنماط من الحذر، تتعانق وتتأزر ويعدل بعضها بعضاً، لتشكل جميعاً مصفاة تخضع لتحرير مستمر... "<sup>(٢)</sup>.

إن هذا النص يتحدث عن طبيعة البشر في خطابهم بعضهم مع بعض، فإن كثيراً من ألوان الخطاب، تتأثر بالقوة السائدة أو السلطة القائمة، فإن لم تكن كذلك

---

(١) خطاب العقل عند العرب، مختار الفجاوي، ص60

(٢) المرجع السابق، نقلاً عن كتاب فوكو: نظام الخطاب، جينبولوجيا المعرفية، ترجمة: أحمد الطائي،

المغرب، 1988، ص61

فإنها تصدر عن الآراء، وتتنازع الأهواء، وهذه بلا ريب\_ طبيعة العنصر البشري في كل أعماله. ولعل هذا هو السبب الذي تنزلت من أجله الكتب السماوية ترسم للإنسان مناهج الحياة وشرائعها؛ لأن البشر لا يمكن أن يُشرَّع بعضهم لبعض أمور دينهم ونظام حياتهم.

كان القرآن الكريم\_ كما هو معلوم في الثقافة العامة لكل الناس\_، المصدر الأساسي لعلوم العربية كلها، كالنحو والبلاغة والأصوات وما يتصل بها من عناصر متعددة، ولذا فإن من البدهي أن يكون الحديث عن الخطاب القرآني مستمداً من أسلوب القرآن الكريم في خطابه للناس جميعاً، وفي تصويره للصورة التعبيرية عن كل ما كان يجري\_ ولا يزال\_ في شؤون الحياة العامة، في جوانبها كلها؛ فالحياة كلها عناصر متشابكة، ومتفاعلة، ومتداولة بين أفراد الناس، فرادى ومجتمعين، ذكوراً وإناثاً، في وطن واحد، أو في أوطان متفرقة.

من خلال هذه النظرة العامة للخطاب القرآني نتوقع أن يكون هذا الخطاب من حيث المخاطب الفاعل، أن يكون الله عز وجل هو جل شأنه أصل الخطاب القرآني في التشريع وإصدار الأحكام، وتنزيل الآيات التي ترسم للإنسان حيثما كان منهاج حياته، وقواعد سلوكه.

إن الله عز وجل خاطب أنبياءه ورسله، وأنزل عليهم ما اقتضت حكمته أن يكون عليه النظام السائد بين الناس، ولهذا كان المجال الثاني من أصناف المخاطب الفاعل هم:

- أفراد القادة والمسؤولين وأصحاب الحكم في أممهم وبلدانهم، ويشمل هذا دعوات الرسل والأنبياء والحكام والأمراء وكل من له أثر في توجيه الناس.



- أفراد المجتمع بصورة عامة، وفق تنوع وظائفهم وأعمالهم، وما يعترض هذه الحياة من مواقف مع الآخرين، ومن صلوات بعضهم مع بعض.
- وفيما يلي آيات كريمات من صور الخطاب الإلهي من الله عز وجل إلى رسله وأنبيائه، إضافة إلى ما مرّ ذكره مما ورد في القرآن الكريم، من مخاطبة (الناس) و (الذين آمنوا) في عشرات المواضع.

قال الله عز وجل:

- \_ (يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ) المائدة: ٤١ .
- \_ (يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ) المائدة: ٦٧ .
- \_ (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ) التكويد: ١٩ - ٢٠ .
- وقال الله عز وجل في مخاطبة النبي \_ عليه الصلاة والسلام:
- \_ (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) الأنفال: 64 .
- \_ (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ) الأنفال: ٦٥ .
- \_ (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى ۖ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ) الأنفال: ٧٠ .
- \_ (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) التوبة: ٧٣ .
- \_ (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمْتَعُنَّ وَأَسْرَحُنَّ سَرَّاحًا جَمِيلًا) الأحزاب: 28 .

وتعدد هذا الأسلوب من الخطاب المباشر في ثماني آيات أخرى من القرآن

الكريم.

وأحياناً كان الخطاب الإلهي يتنزل بأسلوب غير مباشر، أي ليس بأساليب الأمر القياسية المعروفة، بل بأساليب أخرى كأسلوب النفي، كقوله تعالى:

\_ (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا) التوبة: ١١٣ .

\_ وقوله تعالى: (مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَخْلُقُوا

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ) التوبة: ١٢٠ .

وهذه الآية من سورة التوبة هي خطاب من الله عز وجل للمؤمنين من أهل المدينة، وقد تنوعت صور الخطاب من الله عز وجل للناس على مختلف أجناسهم وألوانهم وأديانهم، تحمل إليهم أوامر الله عز وجل وأحكامه، ومن ذلك:

\_ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ

تَتَّقُونَ) البقرة: ١٨٣ .

\_ ومن ذلك قوله تعالى: (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ

الْمُؤْمِنِينَ ۗ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ) آل عمران: ٢٨ وهذا أمر غير مباشر عن طريق أسلوب النهي، وهو طلب الكف عن القيام بشيء لا يرضاه الله عز وجل، أو عرف في الناس الإعراض عنه.

\_ وقوله تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا

تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) الأعراف: ٣١ .

وأحياناً يكون الأمر عن طريق الخبر؛ إذ تكون الجملة خبرية ولكنها بمعنى

الجملة الإنشائية التي تحمل في طياتها أمراً، كقوله تعالى:

\_ (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) (الفرقان:

## أسلوب الخطاب من الأدنى إلى الأعلى

وهذا نوع من الخطاب كثير في القرآن الكريم، وأكثر ما يكون بين العبد وربه، ويكون بين أفراد الناس ومن يملكون أمورهم من الحكام والمسؤولين، ويكون بين الأبناء والآباء ومن في منزلتهم، ويكون بين كل فرد ومن يتصل به في شؤون الحياة، من علم أو صلة اجتماعية، أو غير ذلك من علاقات الحياة العامة.

والخطاب من الأنبياء والمرسلين إلى الله عز وجل، يكون بمعنى الدعاء، كما يسميه علماء البلاغة، ومن هذا دعاء إبراهيم ربه عند الكعبة قبل أن تصبح بلداً آمناً معروفاً عامراً.

\_ قال الله عز وجل على لسان إبراهيم عليه السلام: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ) البقرة: ١٢٦.

\_ وفي سورة إبراهيم عليه السلام دعا إبراهيم ربه وتضرع إليه أن يحفظ عليه ذريته، وأن يرزقهم ويطعمهم ويسقيهم في هذا المكان الساكن المقفر، الذي لا حركة فيه ولا ماء ولا أي أثر من آثار الحياة الإنسانية، قال الله عز وجل:

\_ (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ لِيُهَيَّؤُوا لِيَهُمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ، رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۗ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ، رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۗ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ، رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) إبراهيم: ٣٧ - ٤١.

فانظر إلى هذه اللوحة القرآنية التي تحمل كل ما يشعر به المرء من حب الله عز وجل، والإيمان به وبقدرته على فعل كل شيء إذا توجه إليه المرء بالدعاء. وانظر إلى الله عز وجل كيف يسمي التوجه إليه (بالدعاء) قبل أن تكون البلاغة علماً مدروساً، وقبل أن يضع علماءها القواعد والأصول.

ومن هذا الخطاب، الخطاب من الأدنى إلى الأعلى، ما جرى بين السحرة وفرعون عندما حشرهم من المدائن إلى حيث مكان قصره وملكه. وتسلطه على الناس، فقال الله عز وجل يصف ذلك:

ـ (أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ، يَا تَوَكُّبِكُ لِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ فَجَمِعَ السَّحْرَةَ، لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ، وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ، عَلْنَا نَنْبُعُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْعَالِيِينَ ، فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا لِأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ، قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) الشعراء: ٣٦ - ٤٢.

تصور الآيات الكريمة هؤلاء السحرة المساكين الذين حملوهم من قراهم وأماكنهم في أطراف المملكة إلى فرعون في قصره ومدينته، ووقفوا أمامه مشدوهين خائفين يسألون بارتجاف ورعب وأمل في الوقت نفسه ( إِنْ لَنَا لِأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ)، فأجابهم بصلف وكبرياء وتعالٍ مشروطاً عليهم النجاح في سحرهم ( قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين).

(إذن) هذه وقفت شوكة في حلوقهم، إذ إن العطاء مشروط بالغلب، وسبب هذا الازدراء من فرعون لهم أن الحديث كان بينه وبين السحرة مباشرة، أما في سورة الأعراف، كان الحديث بينه وبين الملأ من قومه الذين أشاروا عليه بجمع السحرة، ولذلك لم يجرؤ أن يخاطبهم بهذا التعالي والكبر والاشتراط. تأمل في السياق الذي ورد في سورة الأعراف، فليس فيه سؤال منهم عن الأجر بل هم

تحدثوا كأن الأمر حقيقة واقعة، وأن الشرط لم يقع عليهم؛ لأن (واسطتهم) كان  
المأ من قومه، يقول الله عز وجل:

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ  
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ، قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، يَا تَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ  
عَلِيمٍ، وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ، قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ  
لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ الأعراف: ١٠٩ - ١١٤ .

تأمل في هذه الآيات تجد المأ من قوم فرعون يسيطرون على الرأي  
والتدبير، هنا في الأعراف (قال المأ من قوم فرعون)، وهناك في الشعراء (قال  
للمأ من حوله)، وهنا في الأعراف (قال السحرة إن لنا لأجراً إن كنا نحن  
الغالبين)، هكذا بصفة التقرير والتأكيد، معتمدين على وقوف المأ من حولهم، أو  
على الأقل إن المأ هم الذين يتولون المناقشة والحوار. وهنا في الأعراف، قال  
فرعون (قال نعم وإنكم لمن المقربين)، وهناك في الشعراء وضع عليهم شرطاً ثقیلاً  
وهو أن ينجحوا في عملهم (قال نعم وإنكم إذن لمن المقربين).

وهكذا تكون غالباً أساليب الخطاب بين الأدنى والأعلى، تقوم على التسلط  
والأمر الجازم والقهر، إلا عند من عصم ربك من الخلفاء والأمراء الذين يتصفون  
بأخلاق الإسلام وأدابه، كأبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وغيرهم من  
الحكام الصالحين، وقليل ما هم.

### أساليب الخطاب في القرآن الكريم

أولاً: الخطاب القرآني الجامع عن طريق السرد والعرض.

تتنوع أساليب الخطاب في القرآن الكريم، وفق ما تقتضيه الحكمة الإلهية  
من أهداف الخطاب، ولكن هذه الأساليب المتعددة يجمعها دائماً جامع واحد، لا  
يتخلف، وهو الإعجاز الإلهي المستمر في آيات القرآن الكريم كلها، وأعني

بالإعجاز القرآني: الصورة الكلية التي نزل بها القرآن الكريم. وأنا لست مع الذين يقسمون الإعجاز أقساماً وأنواعاً، فيقولون: الإعجاز اللغوي، والإعجاز العلمي، والتشريعي، والتاريخي، والبياني، والإعجاز في الإخبار عما كان وما سيكون؛ فهذا كله حديث يُحمل على النية الحسنة في تقدير القرآن وتعظيمه، وهذا في نظري يعد خطأ في النظر إلى القرآن الكريم، الذي يجب أن ننظر إليه بحكمة وقوة وحسم واقتدار؛ لأنه منهاج الله في الأرض وشرعته التي يجب أن يتمسك بها الناس.

القرآن في الحكم الصحيح\_ معجز كله، نزل معجزاً، وحفظه الله عز وجل معجزاً، وهذا الحفظ جعل الله عز وجل له منهاجاً وآليات لا بد منها لتحفظ القرآن الكريم، كما هو، على الصورة التي نزل بها، وربما تسنح الفرصة في هذا البحث للإشارة إليها. فالقرآن الكريم وحدة واحدة، معجز كله، بكل حروفه وكلماته وآياته وسوره. لا يند فيه حرف عن السياق الذي أراده الله عز وجل فيه، ولا لفظ، ولا تركيب، ولا آية، ولا سورة؛ فكل شيء فيه في مكانه، وله دلالاته، وله معناه الذي أراده الله عز وجل، والذي يكشف عنه الإنسان تبعاً في مرّ الأيام والسنين. وهذا ما أشار إليه رسول الله \_ صلى الله عليه وسلم\_ في وصف القرآن، أنه "كتاب الله تعالى، فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل،... هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنتهي عجائبه..."<sup>(1)</sup>

وعليه فإن القرآن معجز كله؛ لأنه وحدة واحدة، وهو \_أيضاً\_ وحدة متكاملة في حديثه عن كل ما يلزم الإنسان في أمور حياته، فلا ينفصل حديث القرآن عن الأخلاق مثلاً، عن حديثه عن العلم، أو عن الجهاد، أو عن الأسرة، أو عن العلاقات الاجتماعية، القرآن حياة شاملة، تتضافر فيه المعاني والدلالات مع

---

(1) انظر نصّ الحديث بتمامه في الجامع لأحكام القرآن، المشهور بتفسير القرطبي، ج1، ص5

التعبير السامي المعجز، ففي ذروة الحديث عن موضوع ما، أو عن طرف من قصة، فإذا بالكلمات تقدم لك حقيقةً علميةً خالدةً، أو مشهداً تاريخياً حياً، أو حقيقةً نفسيةً لما يكشف عنها علماء النفس المتخصصون، تأمل في قول الله عز وجل في مشهد من قصة أهل الكهف:

ـ (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ۖ لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطْنَا، هُوَ لَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ۗ لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى ۗ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا، وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ۗ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۗ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا) الكهف 13- 17.

فقد يظن القارئ أن هذا مشهد من قصة فقط، ولكن عند تدبر الآيات نجد فيها ما يلي:

ـ دعوة إلى البحث في علم التشريح لنعلم ما معنى (وربطنا على قلوبهم).

إنني أرجو أن يأتي يوم يقول لنا فيه علماء الطب، والتشريح، والنفس، ما معنى الربط على القلب، وكيف يتم؟

ـ وحدة الربوبية (ربنا رب السماوات والأرض) ودعوة التوحيد (لن نعبد من دونه إلهاً).

ـ الدعوة إلى اتخاذ طريق العلم الصحيح في كل أمر، فكل من يقول شيئاً عليه أن يقدم عليه السلطان البين، أي البرهان العلمي الواضح.





\_ (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ، يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۚ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ، وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) النحل: ١٠ - ١٤.

\_ (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).

\_ (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ).

\_ (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ).

أوليس في هذه الآيات الكريمة \_أيضاً\_ آية للتأمل والتدبر؟

- ما الحكمة في أن (لاية) وردت مفردة مع (لقوم يتفكرون) و (لقوم يذكرون)؟
- ما الحكمة في أنها وردت جمعاً (لايات) مع (لقوم يعقلون)؟
- ثم انظر كيف جمع إنزال المطر وإنبات الزرع و الزيتون والنخيل وكل الثمرات مع تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، وتسخير البحر، وفي كل كلمة في الآيات الكريمة علم لا ينتهي، وإشارات تحتاج إلى التفكر والتعقل والتدبر، هذا هو أسلوب القرآن الكريم، وحدة التعبير، كما هي وحدة الإنسان في كل أنحاء الأرض، فليس في الأرض إنسان خلق ليبحث في العلوم، وآخر خلق ليبحث في الآداب والفنون، وليس في الإنسان من اختص بالعواطف والوجدان، وآخر اختص بالأفكار والعلوم والبرهان.

إن الإنسان في أنحاء الأرض كلها إنسان واحد في التشكيل وفي الخلق، (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) الإنسان: 2 والإنسان واحد في الابتلاء وفي التكليف وفي الحقوق وفي الواجبات، ولذلك أنزل الله عز وجل عليه ديناً واحداً، للناس كافة، (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) آل عمران: ١٩، وهكذا نزل القرآن الكريم فيه العلم الغزير، والبحث، والتجريب، وفيه الأدب، والعاطفة، والوجدان، وفيه التشريع والأحكام، وفيه الآيات البيّنات، والإشارات العلمية إلى خلق الكواكب والنجوم والأفلاك، والسموات والأرض، والبر والبحر، والماء والهواء، كل ذلك في سياق واحد متكامل، وهذا أحد أسرار التعبير القرآني الجامع، الذي ينفرد به القرآن الكريم.

#### ثانياً: الخطاب عن طريق التصوير.

يعمد الخطاب القرآني أحياناً إلى التصوير المجسم للمعاني، وبخاصة الأفكار غير المحسوسة في عالم الواقع، فيشعر القارئ أو السامع بأنها تتجسم أمامه كأنها حقيقة ملموسة، انظر إلى قول الله عز وجل، في النهي عن تتبع الأعراض، والنظر إلى محارم الآخرين.

— (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۗ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) طه: ١٣١

فإني أشعر أن عيني المرء قد خرجت من وجهه وامتدت أمامه، تلاحق أزواجاً لأناس غيره من المسلمين، كأنما تريد أن تلتحق بها وتمسك بها، وتشبع رغبتها في النظر إليها، وتأمل محاسنها. وهذا التعبير المصور يحمل كل ما في نفس المرء من رغبة وشهوة وبُعدٍ عن أدب غض البصر وحفظ اللسان وطهارة القلب، ومن هذا التعبير المصور تأمل في قوله عز وجل:

\_ (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ، حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فصلت: ١٩ - ٢٠ .

فالناس مجموعون أمام الله عز وجل يوم الحساب، وأعداء الله عز وجل مسوقون إلى النار.

• وهناك يقف الناس للحساب، ويشهد على كل امرئ منهم سمعه وبصره وجلده بما كان يعمل.

وهذا هو الكتاب أو المسجل المفتوح طوال عمر الإنسان، يسجل عليه صوتاً وصورة كل ما يقول وكل ما يفعل، وعند الحساب، يفتح هذا الكتاب، ويقال لكل امرئ من الناس:

( أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ) الإسراء: ١٤ .

ومن هذا الخطاب المصور، قول الله عز وجل، يعزي ويصبر المؤمنين على القرح الذي أصابهم يوم أحد، ويبين لهم أن هذا هو شأن الحياة، يوم لك، ويوم عليك، واني كلما قرأت هذه اللوحة البيانية أشعر أنني دخلت سرداق عزاء كبيراً، فيه حشد من الناس جعلوا يواسي بعضهم بعضاً.

\_ يقول الله عز وجل: ( وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۗ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ، وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ، أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ، وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ، وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۗ أَفَأَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۗ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ، وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّوجَّلاً ۗ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ، وَكَأَيِّن

مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) آل عمران: ١٣٩ - ١٤٦ .

إن قراءة هذه الآيات الكريمة وتدبرها يغني عن كل تعليق؛ لأن القارئ لا بد أن يتصور أمامه هذا المنظر المهيّب في التذکر بالموت، وبالشهادة، وبالمصير المحتوم المكتوب على كل الخلق.

ثالثاً: الخطاب عن طريق الحوار.

حفل القرآن الكريم بشواهد عديدة على أسلوب الخطاب عن طريق الحوار بين المتخاطبين، وهذا أيضاً من قبيل التصوير الحي للمشاهد، والحوار كان يجري بين طرفين، وتأتي المفردات القرآنية كاشفة لما في الصدور في سياق قرآني معجز، يعبر عما في القلوب مثلما يسمع ما يجري على الألسنة، وهذا الخطاب كان يتنزل على محمد \_ عليه الصلاة والسلام \_ تعليماً وتذكيراً وتثبيتاً وعبراً ينشرها أمام الناس، ويقروها على مسامع الناس، ليلبغهم رسالة ربهم، وليعلمهم شؤون دينهم. ومن ذلك هذا الحوار الذي جرى بين إبراهيم عليه السلام وقومه، والله عز وجل شاهد على ذلك، يوجه رسوله عليه السلام ويحميه من كيد أعدائه وشرورهم:

\_ (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) الأنبياء: 51\_52 .

\_ (قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ) الأنبياء:53.

\_ (قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) الأنبياء:54.

\_ (قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ) الأنبياء:55 .

\_ (قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ، وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ، فَجَعَلَهُمْ جُذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ) الأنبياء: 56\_58.

\_ (قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ) الأنبياء: 59.

\_ (قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) الأنبياء: 60.

\_ (قَالُوا فَاتُّوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) الأنبياء: 61.

\_ (قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ) الأنبياء: 62 .

\_ (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ، فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ، ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ) الأنبياء: 63\_65.

\_ (أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ) الأنبياء: 66\_67.

\_ (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) الأنبياء: 68.

\_ (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ) <sup>(١)</sup> الأنبياء: 69.

إن القرآن الكريم يكشف هذه الانحرافات العقلية والنفسية والخلقية التي تجري في أحداث قصصه، فيردها على أصحابها، أو يقيمها على الوجه الذي يرتضيه الحق والعقل اللذين قام عليهما دين الله وجاءت بهما شرائعه<sup>(١)</sup>.

(١) انظر في تصوير هذا الحوار: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب، دار

وكذلك رسم القرآن الكريم لوحات حوارية بين موسى عليه السلام وفرعون في كثير من المواضع، وبين موسى عليه السلام والسامري، وبين عدد من الأنبياء وأقوامهم، وسأعرض فيما يلي حواراً بين موسى عليه السلام وفرعون يعبر عن صورة من صور الخطاب القرآني:

\_ (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) الشعراء: 23.

\_ (قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ) الشعراء:

.24

\_ (قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ) الشعراء: 25.

\_ (قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَى) الشعراء: 26.

\_ (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) الشعراء: 27.

\_ (قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) الشعراء: 28.

\_ (قَالَ لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِيَّاهَا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) الشعراء: 29.

\_ (قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ) الشعراء: 30.

\_ (قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) الشعراء: 31.

\_ (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ )

الشعراء: 32\_33.

\_ (قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ، **يَدُ** أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ

فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) الشعراء: 34\_35.

\_ (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ) (١) الشعراء: 36.

وفيما يلي حوار قصير بين السيدة مريم عليها السلام والمَلَك الذي تمثل لها بشراً سوياً:

- (وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ، فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) مريم: 16\_17.

\_ (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا) مريم: 18.

\_ (قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ) مريم: 19.

\_ (قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) مريم: 20.

\_ (قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ۗ وَكَانَ أَمْرًا مَفْضِيًّا) (٢) مريم: 21.

#### رابعاً: الخطاب عن طريق القصص القرآني

القصص القرآني منهج من مناهج الدعوة إلى الله، وهي أسلوب من أساليب الخطاب القرآني، يقول الله عز وجل في سورة يوسف التي جعلها الله عز وجل أحسن القصص، وفيها آيات للسائلين إلى يوم الدين، قال الله عز وجل في الآية الأخيرة منها: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ) يوسف: 111.

(١) انظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبدالكريم الخطيب، ص131

(٢) انظر: المرجع السابق، 141

ولست هنا بصدد التحليل الفني للقصص القرآني، فتلك دراسة نقدية ليس هذا مجالها، وحسبي \_هنا\_ أن أمثل بقصة يوسف عليه السلام مع إخوته على أساليب الخطاب المتنوعة في هذه السورة، ففي هذه السورة الكريمة:

\_ حوار بين يوسف (الغلام) وأبيه يعقوب عليه السلام.

\_ حوار بين إخوة يوسف وأبيهم يعقوب عليه السلام.

\_ حوار بين السيدة التي هو في بيتها ويوسف عليه السلام.

\_ حوار بين الملك ويوسف عليه السلام.

- وفي هذه السورة بيان وتعليم للناس جميعاً لمبادئ تربوية وقيم إنسانية تتجلى في أحداث السورة الكريمة، منها:

\_ التمسك بالإيمان الكبير ومراقبة الله عز وجل في المواقف العصبية.

\_ التدبير الحسن في وقت الرخاء ووقت الشدة التي تصيب الناس.

\_ تحقق نصره الله عز وجل لمن ينصره ويسأله ولا يسأل غيره جل شأنه.

\_ المسامحة والعفو عن يسيئ إلى غيره من أجل نشر المحبة والخير بين

الناس.

- وفي قصة موسى عليه السلام في طفولته الأولى عبر مفيدة، وآيات باهرة لمن تدبر كتاب الله عز وجل، ففي أوائل سورة القصص تعرض الآيات الأحداث التالية:

\_ أوصى الله عز وجل إلى أم موسى أن ترضعه.

\_ وأن تلقية في اليم إذا خافت عليه بطش فرعون وجنوده.

\_ وألا تخاف ولا تحزن وهي تفعل ذلك.



\_ يلتقط آل فرعون الطفل موسى من اليم.

\_ تتبعه أخته خفية لتعلم ما يكون من أمره.

\_ يحتار آل فرعون في شأن الطفل الذي امتنع عن الرضاعة من كل النساء.

\_ تدلهم أخته \_ وهم لا يشعرون \_ على أهل بيت يكفلونه لهم.

\_ تعود به أخته إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن.

\_ يتحقق وعد الله عز وجل لها بأن يعيده إليها، وسيتحقق وعده الآخر بأن

يجعله \_ في المستقبل \_ من المرسلين.

ولن تغني كل أساليب الدنيا، وكل مهارات كتابها وأدبائها أيَّ إنسان عن قراءة

هذه الآيات الكريمة في سياقها، يقول الله عز وجل:

\_ ( وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا

تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۗ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) القصص: 7.

\_ (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ

وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ) القصص: 8.

\_ (وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ ۗ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ

نَتَّخِذَهُ وَادًّا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) القصص: 9.

\_ (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۗ إِن كَادَتْ لَتَنْبِذِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ

قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) القصص: 10.

\_ (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۗ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (

القصص: 11.

\_ (وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ) القصص: 12.

\_ (فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسُدَّ أَكْثَرَهُمْ لَآ يَعْلمُونَ) القصص: 13، صدق الله العظيم.

- ترى من يستطيع أن يصور مشاعر الأخت الصبيّة، وهي تحمل أباها تطير به إلى أمه الوالهة، التي كاد قلبها يتصدع حزناً وعطفاً على ابنها الذي ألقته في اليم؛ إيماناً بربها وطاعة لأوامره؟
- ترى من يستطيع أن يصور فرحة الأم وهي تتلقف ولدها، وهو يُرَدُّ إليها تحقيقاً لوعده الله: (إِنَّا رَأَوُهُ إِلَيْكَ) ؟
- ترى كم مرّ من الوقت على هذا الطفل الرضيع منذ ألقته أمه في اليم إلى أن عاد إليها؟
- ترى كم ساعة يصبر الطفل الرضيع على فراق ثدي أمه ليبقى على قيد الحياة؟

إذا أردت أخي القارئ أن تعلم كم ساعة مرّ عليه بين لحظة فراقه لأمه وإعادته إليها، فعدّ تلك الآيات الكريمة التي صورت هذه الأحداث بإعجاز قرآني مبين.

إنها سبع ساعات، بل هي سبع آيات. نعم إنه تفسير إشاري قلبي نابع من المشاعر، ولكنه \_والله أعلم\_ هو عين الحقيقة التي كانت تماماً في واقع الأمر.

**خامساً: القرآن الكريم يصنع لغة جديدة راقية في الخطاب العربي.**

أعني بالخطاب العربي: التعبير باللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن الكريم. وينبغي لهذه الآيات الكريمة في وصف القرآن الكريم أن تأخذ حقها بالبيان

الصحيح، والتعليق الدقيق، الذي لا أظن أنها وفيت حقها، على الرغم من آلاف الدراسات قديماً وحديثاً عن لغة القرآن الكريم وإعجازه. يقول الله عز وجل: (وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥.

وإن علينا إدامة النظر والتدبر والتأمل في الكلمات والتراكيب الآتية في هذه الآيات الكريمة:

\_ وإنه لتنزيل رب العالمين، هكذا (تنزيل) وليس إنزال أو غيرها.

\_ وإنه لتنزيل رب العالمين، (رب العالمين)، هكذا دون أي اسم آخر من أسماء الله الحسنى، كالرحمن أو الرحيم أو القادر أو العزيز أو غير ذلك.

\_ وإنه لتنزيل رب العالمين، أي (العالمين) جميعاً، وليس عالماً واحداً، كأن يكون عالم الإنسان، أو عالم الحيوان، أو النبات، أو السماوات، أو الأرض، بل تنزيل رب العالمين كلها، ما عرفنا منها وما لم نعرف.

\_ نزل به الروح الأمين (على قلبك)، وليس على نفسك، أو على تفكيرك، أو على فؤادك، أو أي جزء آخر من أجزاء الجسد.

\_ ثم هو (بلسان عربي مبين). وسأمضي الآن مع هذا التركيب الإلهي (بلسان عربي مبين)، وأدع النقاط الأخرى، عسى أن يسمح الوقت في مناسبة أخرى لبسط القول فيها.

إن القرآن الكريم نزل بكل يقين، بلسان عربي مبين، بهذا صرّحت كثير من الآيات القرآنية بكل وضوح وبيان، بما لا يدع مجالاً للشك عند كل قارئ أو سامع، أياً كانت عقيدته وفلسفته. يقول الله عز وجل:

\_ (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۖ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ

وَهُذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) النحل: ١٠٣.

\_ (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ) الشعراء: ١٠٣ - ١٠٥ .

\_ (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۗ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۗ أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) فصلت: ٤٤ .

\_ (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ) يوسف: ٢ .

\_ ( وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ) طه .

\_ (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) الزمر: ٢٧ - ٢٨ .

\_ (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) فصلت: ٣ .

\_ (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ ۙ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) الشورى: ٧ .

\_ (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۗ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ) الأحقاف: ١٢ .

ولعل سائلاً يسأل: ما ضرورة حشد هذه الآيات الكريمة كلها في هذا

الاستدلال، أولاً تكفي آية أو آيتان للدلالة على الفكرة التي تريد؟ فأقول: إن في كل آية من هذه الآيات الكريمة دلالات كثيرة، وإنها كلها تقدم عرضاً وافياً لمن أراد أن يتدبر آيات القرآن الكريم، ودلالة إنزاله قرآناً عربياً، ولذلك تعددت الفواصل القرآنية: (لعلهم يتقون) و (لعلهم يتذكرون) و (لعلكم تعقلون) و (لقوم يعلمون)، ويمكن لدى تدبر الآيات الكريمة التوصل إلى الحقائق التالية:

\_ لم يذكر الله عز وجل صفةً للسان الذي أنزلت به الكتب السماوية، إلا مع القرآن الكريم، (بلسان عربي مبين)، مع تأكيد هذه الحقيقة، وهذا إشارة لا بد من التوقف عندها والتفكر في دلالتها.

حقاً لقد وردت إشارة عامة بأن كل نبي أرسل بلسان قومه ليبين لهم، وهذا واضح في قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۚ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) إبراهيم: ٤، وإنما نستطيع أن نفهم من هذه الإشارة أن كل نبي منهم \_ عليهم الصلاة والسلام \_ قد بلغ قومه بلسانهم، ثم انتهى الأمر، مع نهاية كل رسالة، وانقضاء فترتها الزمانية. أما الإصرار على اللسان العربي المبين، الذي أنزل به القرآن الكريم، فهو دليل ساطع، وبرهان قاطع على أهمية هذا اللسان، وعلى أثره الكبير في صناعة الحضارة الإنسانية، وفي سلسلة الكتب السماوية؛ فالقرآن الكريم عربي اللسان منذ كان، ونحن نعلم يقيناً أن (الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ) الرحمن: ١ - ٢ قبل خلق الإنسان نفسه، هكذا تقول الآيات الكريمة: (الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) الرحمن: ١ - ٤.

كان القرآن في الكتاب المكنون، وفي اللوح المحفوظ قبل خلق الإنسان نفسه، يقول الله عز وجل:

\_ (فَلَا أُفْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ، إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ، لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ، تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَقْبَهُ إِذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ، وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ) الواقعة: ٧٥ - ٨٢.

أفبعد هذا البيان بيان للإنسان؟ أفبعد هذا القسم العظيم لو أن الناس يعلمون\_ قسم على علو شأن القرآن الكريم، وقدمه في الكتاب المكنون، قبل خلق الإنسان، وأكاد أقول قبل خلق السماوات والأرض؟

وعندما يقول الله عز وجل (تنزيل رب العالمين) في آيات كثيرة، إنما هو تأكيد على أن القرآن الكريم كان محفوظاً في علم الله، ثم شاءت الحكمة الإلهية، عندما حلّ اليوم الموعود أن ينزل القرآن الكريم على عبده محمد صلى الله عليه وسلم، ليكون للعالمين نذيراً.

وتؤكد هذه الآيات الكريمة آيات أخرى في سورة البروج، يقول الله عز وجل فيها: ( وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ، بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ، فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ) البروج: ٢٠ - ٢٢.

ولكم أرجو لو يتدبر الناس هذا القول العظيم، ويتساءلون عن دلالة (بل) في هذه الآيات الكريمة، وما تحمله من معانٍ وآفاق تحلّق بالإنسان إلى عنان التأمل والتدبر والتفكير والعرفان.

ثم ألا تثير هذه الإشارات الإلهية العلماء الكبار والمختصين المدققين في علوم (الحاسوب) و(علوم الاتصالات الحديثة) و (العلوم التي تبحث في أسرار الاتصال والانتقال بين أقطار الأرض)، ألا تثيرهم هذه الآيات الكريمة ليجنوا بحثاً علمياً في أسرار قوله تعالى: ( إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ا ) الواقعة: 77-78 ثم في قوله تعالى ( بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ، فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ) البروج: ٢١ - ٢٢ ما الفرق بين القرآن الكريم والقرآن المجيد؟ هل هما شيئان أم كتاب واحد؟ وما هو اللوح المحفوظ، وما الفرق بينه وبين الكتاب المكنون؟ وهل الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ، أم هما شيئان مختلفان؟

أما أن للعلماء المسلمين، ولمراكز البحث العلمي في العالم الإسلامي أن تجيب عن هذه الأسئلة؟ أفلا تتحرك نفس أحد الكبار من علماء المسلمين، أو من أغنياء المسلمين أن ينفق جزءاً من ماله على مجمع كبير علمي، يحشد فيه من علماء اللغة، وعلماء الفلك، والاتصال، والإعلام، والحاسوب، والطب، والتربية، والنفس، والاجتماع، لكي يجتمعوا ويجيبوا إجابات علمية عن هذه الأسئلة، وعن مئات الأسئلة الأخرى التي تفهم من الآيات القرآنية، وهذه مسؤولية علماء اللغة في المقام الأول، ليقدموا لزملائهم العلماء صورة الأفكار على شكل فرضيات علمية، يقوم العلماء الآخرون بوضعها موضع البحث والتجريب والاختبار والتحليل؟!!!.

إن آيات القرآن الكريم لتؤكد أن العربية هي لغة القرآن منذ كان القرآن، وقد علمنا أنه كان قبل خلق الإنسان، وقد أشعرتنا الآيات الكريمة على إرادة الله عز وجل المؤكدة على إنزال القرآن الكريم باللسان العربي. وقد حرصت الآيات على ذلك، يقول الله عز وجل في سورة القيامة:

ـ (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) القيامة: ١٦ - ١٩ .

لقد تكفل الله عز وجل بقراءة القرآن كما هو، بلسانه العربي المبين، فأنزله على نبيه \_صلى الله عليه وسلم\_ عن طريق جبريل عليه السلام، يقرؤه كما أراه الله أن يُقرأ، ثم أمر الله عز وجل بحفظه وقراءته كما قرأه جبريل. إن هذا أمر إلهي لا ريب فيه.

وإن هذه القراءة الإلهية للقرآن الكريم، كان لها خصائص ومناهج محددة، هي ما سمّاه الناس من بعدُ (الترتيل)، أخذاً من كتاب الله عز وجل.

\_ (يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ، فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا، نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا) المزمّل: ١ - ٤ هكذا بأسلوب التوكيد.

فإذا علمنا أن المزمّل هي من أوائل ما نزل من السور، ولم يكن قبلها قرآن ينلّ سوى سورة العلق، علمنا أن الأمر بالترتيل قبل أن يكون القرآن، إنما هو أمر اتباع المنهج الإلهي الذي أمر الله عز وجل أن يُقرأ عليه القرآن، ليحفظ القرآن الكريم من الضياع ومن التشتت بين اللهجات واللهجات المختلفة، وصور النطق المتعددة، التي من شأنها أن تذهب بالقرآن، ربما بعد مرور عقود قليلة بعد نزوله<sup>(١)</sup>.

الله عز وجل اختار العربية لساناً لكتابه الكريم، آخر الكتب السماوية نزولاً، ولعله كان أول الكتب السماوية عند الله عز وجل. ولكن المؤكد يقيناً أن الأمر بترتيل القرآن، أي بتوحيد طرائق نطق حروفه وكلماته بحروفها الصامتة والصائتة، إنما هو أمر إلهي بحفظ القرآن الكريم إلى يوم الدين؛ لأنه من البدهي أن يحفظ الله عز وجل كتابه الذي خاطب به الناس إلى قيام الساعة. فكيف يذهب كتاب أرادته الله عز وجل أن يبقى تشريعاً وديناً إلى يوم الدين؟

إن هذه الخصيصة للخطاب القرآني ينبغي أن تكون في قلب كل إنسان عربي مسلم، يحمل كتاب الله ويتبع دين الله عز وجل. ذلك أن علم الأصوات الحديث يبين طرائق نطق الأصوات وفوق مخرجها الدقيقة، وإن هذا النطق الدقيق من شأنه أن يوحد طريقة نطق الأصوات على اختلاف الأجناس والألوان، وهذا سر حفظ القرآن الكريم على مر العصور، ولأمر ما نسمع بين ظهرانينا أناساً من بلدان شتى

---

(١) انظر في هذا بحثاً مفصلاً بعنوان: "ورتل القرآن ترتيلاً: أول درس صوتي في تاريخ اللغات"، ألقينته في مؤتمر آل البيت، عام 2008م.



يقرأون القرآن بطريق صحيح، ونطق فصيح، فإذا تحدث أحدهم عن بلده، أو عن شؤونه الخاصة، تحدث بلغة عربية ركيكة لا يكاد يبين فيها.

ثُرَى، هل هذا الذي أراده رسول الله \_ صلى الله عليه وسلم \_ في حديث طويل، يصف فيه القرآن الكريم، قال فيه: "... وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه..."<sup>(1)</sup>.

إن قوله عليه الصلاة والسلام: (ولا تلتبس به الألسنة)، بحاجة إلى تدبر طويل.

### كيف صنع القرآن الكريم الكلام العربي واللغة العربية.

عندما نزل القرآن الكريم على رسول الله \_ صلى الله عليه وسلم \_ لم يكن من علوم العربية شيء مما عرف فيما بعد من علوم النحو والصرف والبلاغة والفقهاء والتفسير والحديث والعروض والنقد وما إلى ذلك. وقد تأثر الناس بأساليب القرآن الكريم وطرائق عرضه للأفكار والمعلومات والحقائق والمشاعر تأثراً عاماً، ليس له أية مقاييس سوى مشاعر الانطباع العامة في النفس الإنسانية، ولكنهم صاروا يتحدثون بلغة القرآن من حيث لا يشعرون، وأعني بلغة القرآن: أساليب القول فيه، وطرائقه في استخراج ما في الحروف والمفردات والتراكيب من دلالات ومعاني. وإن هذا \_ بالتأكيد \_ لم يكن معروفاً لدى الناس في العصر الجاهلي، على الرغم من أنهم كانوا أفصح الناس وأعلاهم كعباً في فنون القول وأساليب البيان، ولو أردنا التمثيل ببعض أقوال الشعراء الجاهليين لسمعنا شيئاً عجباً لم يقل مثله الناس من قبل.

---

(1) الجامع لأحكام القرآن، المشهور بتفسير القرطبي، ج1، ص5

لا غرو في ذلك، فقد قال رسول الله \_صلى الله عليه وسلم\_ عندما سمع  
محاورة بعض الشعراء، قال: "وإن من البيان سحراً، وإن من الشعر حُكماً" (١). هذا  
السحر، وهذا البيان تغلغل في قلوب الناس، وانتشر على ألسنة الشعراء والأدباء  
والمؤلفين في العصور التالية لنزول القرآن الكريم، فصار للحروف دلالات جديدة،  
وللكلمات مواقع جديدة، وللتراكيب سياقات جديدة، فإذا الناس أمام قول كالسحر،  
وما هو بالسحر، وإذا بهم يسمعون، فيعجبون ويقولون: والله ما هذا بكلام بشر.  
\_ ولعل في قصة إسلام عمر بن الخطاب \_ رضي الله عنه \_ ما يشعر بهذا  
المعنى، عندما قرأ في بيت أخته فاطمة بنت الخطاب، التي أسلمت قبله الآيات  
الأولى من سورة طه، فتخشع قلبه، ورق صوته، وتأثر وجهه، وقال: "ما أحسن هذا  
الكلام وأكرمه..." (٢).

وهل أتاك حديث الأعرابي الذي سمع القارئ يقرأ قوله تعالى في سورة يوسف  
(قَلَمًا اسْتَبَيَّسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا) يوسف: ٨٠ فقال: والله ما يقول هذا بشر.

وهل علمت قصة عتبة بن ربيعة الذي تعهد لقومه أن يكلم (محمدًا) وأن يرده  
عن دعوته، أو يعطيه ما يريد ليعدل عنها، "... فقام إليه عتبة حتى جلس إلى  
رسول الله \_صلى الله عليه وسلم\_، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت  
من السلطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت  
به جماعتهم وسفهت به أحلامهم... فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنتظر فيها لعلك  
تقبل منها بعضها، قال: فقال له رسول الله \_صلى الله عليه وسلم\_ قل يا أبا الوليد،

---

(١) سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، ( 275هـ)، راجعه وضبطه: محمد محيي

الدين عبدالحميد، (د.ط)، دار إحياء السنة، (د.ت)، رقم الحديث (5011)، ج4، ص303

(٢) انظر خبر إسلام عمر بن الخطاب \_ رضي الله عنه \_، في تفصيل جيد في كتاب السيرة النبوية،

لابن هشام، طبعة البابي الحلبي، ط2، 1955م، ج1، ص342\_350

أسمع. قال: يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا... قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال: أفعل. فقال: بسم الله الرحمن الرحيم (حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) فصلت: ١ - ٤ ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيها يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبه أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه. ثم انتهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

فقام عتبه إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم<sup>(١)</sup>.

وهل، وهل، أمثلة كثيرة ترويهما الكتب على تأثر الناس بآيات القرآن الكريم، وما ذلك إلا لتغير أساليب القول التي يعهدونها ويعرفونها من قبل، إلى أساليب جديدة، ودلالات جديدة ليس لهم عهد بها.

\_ مرت معظم كتب التفسير الكبرى على قوله تعالى في سورة آل عمران (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) آل عمران: ١٢٣ فقالوا:

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، ج١ ص 293\_ 294

"كانت بدر يوم سبعة عشر من رمضان، يوم جمعة لثمانية عشر شهراً من الهجرة، وبدر ماء هنالك، وبه سمي الموضع" <sup>(١)</sup>. وفي تفسير ابن كثير كلام قريب من كلام القرطبي عن بدر ومكانه وانتصار المسلمين بنصر الله <sup>(٢)</sup>. وفي تفسير الألوسي قال: "إن بدرأ ماء بين مكة والمدينة، التقى عليه النبي صلى الله عليه وسلم\_ والمشركون..." <sup>(٣)</sup>.

ولكن الباء هنا ليست بمعنى (في)، وما ينبغي لحرف أن يكون مكان حرف آخر في القرآن الكريم، فلكل حرف دلالاته وموقعه، وليس صحيحاً ما كتبه بعضهم من تناوب الحروف بعضها عن بعض، فهذا قول ينبغي أن نطرحه الآن عن أساليب القرآن الكريم. فالباء هنا تفيد السببية؛ أي إن الله عز وجل نصركم إلى يوم الدين بسبب انتصاركم ببدر، وهذا مصداق دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام في موقعة بدر: "اللهم إن تهلك هذه العصابة، فلن تعبد في الأرض". ولك أن تجمع بين دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام، ونص الآية الكريمة (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ) لتعلم كيف تلتقي دلالة الآية الكريمة عندما تفسر الباء بمعنى السببية، وتبين دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام في يوم بدر.

إن القرآن الكريم علم الناس كيف يرسمون الصور المعبرة بحسن اختيار الكلمات المناسبة في السياق القرآني. انظر إلى استعمال القرآن لكلمة (حببت أعمالهم) <sup>(٤)</sup>، وإلى استعمال القرآن لكلمة (النفاق وما يشق منها) <sup>(٥)</sup>، وإلى (ولا

---

(١) تفسير الجامع لأحكام القرآن، المشهور بتفسير القرطبي، ج4، ص190

(٢) تفسير القرآن العظيم، المشهور بتفسير ابن كثير، ج1، ص400

(٣) تفسير روح المعاني، المشهور بتفسير الألوسي، ج4، ص39

(٤) شواهد في الإعجاز القرآني، عودة خليل أبو عودة، دار عمار، عمان، (ط1)، 1998، ص143

(٥) التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، عودة خليل أبو عودة، دار عمار،

عمان، (ط2)، 2013، ص260

تصغر خذك للناس) <sup>(١)</sup>، وإلى عشرات غيرها في السياق القرآني، إنه صنع لغة جديدة، هي اللغة الإسلامية \_إن جاز التعبير\_، استخرجها من رحم اللغة العربية، أو إن شئت فقل إنه قدم اللغة العربية في أرقى صور البيان فيها من خلال الدلالات والمعاني التي حملها للألفاظ والتراكيب من خلال العناصر اللغوية، وصور التنوع في الأسلوب، من أمثال <sup>(٢)</sup>:

\_ تنوع صيغ الأفعال بين الماضي والمضارع والأمر.

\_ تنوع أنماط الجمل بين الاسمية والفعلية والشرطية.

\_ التقابل بين التعريف والتكثير في الجمل المتشابهة في مواطن مختلفة.

\_ التقابل بين الأفراد والتنثنية والجمع.

\_ تبادل صور التقديم والتأخير في أنماط الجمل وفق دلالات السياق.

\_ تعدد صور التوكيد والقسم والأمر والنهي والنداء، وما إلى ذلك من أساليب

الخبر والإنشاء في تناسب التراكيب والدلالات التي تحملها <sup>(٣)</sup>.

ثم إن القرآن صنع من خلال السياق دلالات جديدة للحروف والألفاظ والتراكيب، وانتشرت هذه الدلالات، وصارت شيئاً معتمداً ملموساً مقررراً على ألسنة الكتاب والأدباء والعلماء والباحثين، وهي لغة جديدة، سميتها اللغة الداخلية التي تسري خلال التراكيب القرآنية موازية للمعنى العام، الذي تحمله الدلالات في النظرة الأولى.

---

(١) شواهد في الإعجاز القرآني، عودة خليل أبو عودة، ص 379

(٢) انظر: بحث (البيان القرآني: مفهومه ووسائله)، عودة خليل أبو عودة، مجلة إسلامية المعرفة، العدد

56، 2009م، ص 49

(٣) المرجع السابق، البحث كله في هذه المعاني والأساليب القرآنية.

\_ من ذلك مثلاً: دلالة (إذا) و (إن) في القرآن الكريم، فالأولى تستخدم عند اليقين، الثانية عند الشك في حدوث الأمر. فعندما يتعلم الناس هذا القول ويتعاملون به، يصبح هذا لغة جديدة لمثل هذه الحروف<sup>(١)</sup>.

ومثل هذا يقال في (السين) و (سوف)، فالأولى للأمد البعيد، والثانية للأمد القريب. ومثل ذلك يقال في (أم) و (أو)، وفي (الواو) و (التاء) في القسم، وفي (الباء) و (في)، وفي (نون التوكيد الثقيلة والخفيفة)، وهكذا كثير من الأمثلة.

\_ ومن ذلك أيضاً الدلالة الخاصة القرآنية لما يَظُن كثير من الناس إنه من الترادف:

- فالحلف في القرآن غير القسم، الأول يكون في الكذب والثاني في الصدق<sup>(٢)</sup>.
- والعقاب غير العذاب، فالأول عقاب في الدنيا والثاني في الدنيا والآخرة.
- والغيث والمطر، الأول في الخير والثاني في العذاب.
- وجاء الموت غير حضر الموت، فالأول الموت المفاجئ والثاني المتدرج غير المفاجئ، كمن يكون مريضاً أو هرمًا كبيراً أو مصاباً بإصابات شديدة، لا يرجى البرء منها في حدود التصرف الإنساني<sup>(٣)</sup>.
- والحياة الدنيا غير الدنيا، فالأولى عند الانشغال بشؤون الحياة ودواعي النفس، والثانية اسم علم مقابل للآخرة.
- والفلاح والفوز، فالأول فلاح في الدنيا، والثاني فوز في الآخرة.

---

(١) انظر: شواهد في الإعجاز القرآني، عودة خليل أبو عودة، ص 219

(٢) انظر: المرجع السابق، ص 223

(٣) المرجع السابق، ص 105

- والمسلم والمؤمن والمحسن، كأنهم أشخاص يتحركون بيننا في الحياة نعرف كلاً بسيماهم التي حدّدها لهم القرآن الكريم.
- والذي في قلبه مرض، والمنافق، والفاسق، والكافر، والمشرك، والملحد، أشخاص يتحركون أمامنا في المجتمع، عندما نقرأ صفاتهم وسلوكهم في السياق القرآني، نتعرف إليهم كأنما علقت على جباههم لافتة تدل على كل منهم.

هذا هو الخطاب البياني الذي يصور الحقائق والأفكار صوراً مجسّدة أمامنا<sup>(١)</sup>.

إن هذه الدلالات التي صنعها القرآن الكريم للألفاظ والتراكيب، والحروف التي تخلل ذلك كله، إنما هي لغة جديدة، وأسلوب من الخطاب جديد، ما كان يعرفه العرب من قبل، ولعل هذا هو أوضح تفسير \_حتى الآن\_ لهذه الحروف المقطعة في أوائل بعض السور:

\_ الم: في أول البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة.

\_ المص: في أول سورة الأعراف.

\_ الر: في أول سورة يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر.

ولكنها في الرعد: المر.

\_ حم: في أول سورة غافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجمانية

والأحقاف، ولكنها في الشورى: حم عسق.

\_ كهيعص: في أول سورة مريم.

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص 223

\_ طه: في أول سورة طه.

\_ يس: في أول سورة يس.

\_ ق: في أول سورة ق.

\_ ن: في أول سورة القلم.

وهكذا.

إن هذه الحروف تقول لكل مسلم أو لكل إنسان: إن هذا بلسان عربي مبين، بالحروف التي تتكلمون بها وتنشدون بها، فإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا بها فاصنعوا مثلها، وادعوا شهداءكم من الجن والإنس.

إن العرب، وكل من يتحدث بالعربية، يتخذ من لغة القرآن الكريم أسلوباً له، ومجالاً للتأثر به في تراكيبه ودلالاته ومعانيه، وهذا لا يعني أن الناس يتمثلون بآيات القرآن أو يقتبسون منها، بل يستخدمون الألفاظ والتراكيب على الصورة التي صنعها القرآن، وهذا الذي حير الناس وأذهلهم.

لعل قائلاً يقول: إن للقرآن إيقاعه ومعانيه وتأثيره في النفوس، وإن له من يؤمن به ويدافع عنه، ولكن للشعر العربي أيضاً إيقاعه ومعانيه وتأثيره في النفوس، وإن له \_ أيضاً \_ من يؤمن به ويدافع عنه.

ولكن النظر العلمي الموضوعي الصادق والنقد الأمين، يعلم علم اليقين أن القرآن الكريم يتلاحم فيه اللفظ والمعنى في وحدة واحدة كأنها البشرة ولونها، وكأنها العين وبصرها، والأذن وسمعها، لا ينفصلان أبداً. إن القرآن الكريم تسيير معانيه وتراكيبه في القرون، وتعبر عن أهواء النفوس، وتصور أعماق القلوب، بحديث صادق كل الصدق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أبد الدهر.



ولكن الشعر والأدب، وكلام الشعراء والقصاصين وأهل النثر وأهل الفنون، فحدث ولا حرج، عن مواقفهم ومدائحهم وأهاجيهم ونقلب أمزجتهم. إن امرأ القيس وعظماء الشعر الجاهلي، والفرزدق وجريير والمنتبي وأبا العلاء وشوقي وحافظ والجواهري وغيرهم من عيون الشعراء والأدباء، يقولون القول الذي ينتهي لحظة إلقائه من حيث المعنى، وقد ينتهي بعد سنوات قليلة من حيث تعبيره وتراكيبه، وإلا فأين هرم بن سنان والحارث بن عوف اللذان قال فيها زهير ما قال؟ وأين عبلة ودارها التي قال فيها عنتره:

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحاً دار عبلة واسملي

وأين الخلفاء الأمويون الذين جرى بين أقدامهم جريير والفرزدق والأخطل، وأين كافر الإخشيدي الذي قال فيه المنتبي:

فتى ما سرينا في ظهور جدودنا إلى عصره إلا نرجي التلاقيا

إن مجرد الإحساس بهذه الأقوال المبالغ فيها، يجعل وقعها على النفس ثقيلاً، إلا ما كان من أثر بسيط لجمال التعبير وجمال اللغة، ولكنه سرعان ما يزول. وإن سحر القرآن، وجمال إيقاعه، وكمال تراكيبه، حي في القلوب دائم لا يزول.

إن هذه أيضاً خصيصة أخرى من خصائص الخطاب القرآني، الصدق الصراح الدائم، والكمال المطلق في القول والتعبير.

كان للخطاب القرآني \_ولازال\_ تميز كبير في فن القول وأساليب التعبير، فكان الخطاب القرآني متميزاً متفرداً في لغة الخطاب بين الله عز وجل وعباده، وبين عباده بعضهم مع بعض وبين العباد ورب العباد، وبين أهل الإيمان وأهل الشرك، وبين الله عز وجل وأصناف خلقه من إنس وجن، وحيوان ونبات، وكواكب

ونجوم، وكل ما خلق الله عز وجل. إنه خطاب شامل، يشمل كل دقائق الحياة، وكل حقائق الكون بلغة سامية تامة، صحيحة فصيحة، لا شية فيها، ولا نقص، ولا عيب، وحسبك أن تكون أول آية في كتاب الله، بعد سورة الفاتحة التي لها شأن خاص، هي قوله تعالى (الم، ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) البقرة: ١ -

٢

وها هي القرون تمر قرناً بعد قرن، والقرآن الكريم (لا ريب فيه)، وعده الحق، وصفاته حق، وبنائه تام محكم (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) فصلت: ٤٢.

إن الخطاب في لغة القرآن الكريم لا ينتهي القول فيه. وأود في نهاية هذا البحث، الذي أشعر أن الكلام فيه يطول وأن القول فيه مازال يفيض بأفكار كثيرة، وشواهد عديدة، تحتاج إلى تفصيل وتحليل وبيان، ولكنني في انتظار أن يسمح الوقت إلى فضل بيان، ومزيد تفصيل لآيات القرآن الكريم، أقرر حقيقة مازلت أقلب فيها النظر منذ بعض الوقت وهي أن القرآن الكريم كتاب الله عز وجل، الذي لا تنتهي عجائبه، وأنه مازال ينتظر جهود الباحثين المخلصين الذين ينظرون إليه نظرتهم إلى ملكوت السماوات والأرض، فإن هذا القرآن الكريم هو الكون المقروء كما قال أحدهم يوماً ما. وإن الكون هو القرآن المشهود الملموس لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

إن الإنسان، هذا الإنسان الذي خلقه الله عز وجل في أحسن تقويم، إن هو إلا كون يتحرك، إن فيه من شواهد عظمة الخلق، ودقة الصنع، ما يكون من كل فرد مدينة صناعية متحركة، تحتاج لو قسمت إلى أجزائها إلى كل الطاقة الكهربائية الممكنة في العالم لتسييرها. خطر لي هذا خاطر عندما زرت أحد المرضى ممن يراجعون المستشفى ثلاث مرات في الأسبوع لإجراء عملية غسيل الكلى، فرأيت قاعة واسعة امتلأت بالأجهزة والحبال الكهربائية والأنابيب الذاهبة

والواردة من جسم المريض، كل هذا للقيام بعمل الكلية الواحدة، فكيف لو أردنا أن نجري العملية نفسها لعمل الرئتين، والقلب، والأعصاب، والمعدة، والأمعاء، والعين، والأذن، ومئات الأجهزة الدقيقة الأخرى في الإنسان، في كل فرد منه؟

إن في هذا الفرد الإنساني من قدرة الخلق، ما في الكون كله، وإن في هذا الكون من عظمة الخلق واتساعه، وقدرة خالقه العظيم ما في القرآن الكريم من دلالات وبيان وعجائب التعبير، وصور التفكير. إننا كلما تدبرنا في القرآن الكريم، انكشفت لنا حقائق جديدة، وكلما أعدنا قراءة القرآن الكريم، تبدت لنا شواهد جديدة في الإعجاز؛ إعجاز في التشريع، وفي العلم، وفي البيان، وفي دقائق اللغة، وفي انكشاف العلوم، وفي أسرار الخلق الإنساني، والخلق العام.

- إن القرآن الكريم بأسراره كون كبير،
- وإن الكون بأفلاكه وكواكبه قرآن مشهود بسوره وآياته،
- وإن هذا كله يشهد للإنسان بعظمة خلقه وحسن تقويمه.

— قال الله عز وجل (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلُمُونَ) البقرة: ١٦٤ .

— ويقول الله عز وجل (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) غافر: ٥٧.

وعندما يقارن خلق السماوات والأرض بخلق الناس، نعلم إلى أي مدى يكون خلق الإنسان عظيماً وكبيراً في ميزان الله.

\_ ويقول الله عز وجل ( قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا، وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) الإسراء: ٨٨ - ٨٩.

\_ وقال تعالى (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) الكهف: ٥٤.

هذا هو الكون، وهذا هو الخلق الإنساني، وهذا هو القرآن الكريم. ولعل في هذا ما يمثل الأسلوب القرآني الخالد في الخطاب، لكل مستويات الناس، وفي كل أغراضهم وشؤونهم، ( إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) آل عمران: ٦٢.

والحمد لله رب العالمين.

## التعليقات والمناقشات

- د. إيمان الكيلاني

توصي بأهمية دراسة أدب الخطاب الأخلاقي أو أدبية الخطاب الأخلاقي في القرآن الكريم.

- د. يعقوب أبو حلو

يتمنى على المحاضرين والحاضرين الربط بين هذه المحاضرات وعنوان المؤتمر "لغة الخطاب في العصر الحديث"؛ فما جاء في القرآن الكريم وما جاء في لغة الخطاب في اللغة العربية يربط بين الماضي والحاضر وحتى المستقبل الذي يجب أن يركز على التأمل والتفكير والتحليل واستخدام العقل في مخاطبة الطرف الآخر.

- د. رائد عكاشة

يوجه سؤالاً للباحث: لو أردنا أن نضع بدلاً من مصطلح الخطاب القرآني مفهوم الرسالة القرآنية أو الأسلوب القرآني أو الرؤية القرآنية، هل ستتغير المفردات التي تحدثت عنها؟

- د. أمين أبو لاوي

يوضح مصطلحي "المكي والمدني"، قائلاً: المكي، ما كان قبل الهجرة، والمدني: ما كان بعد الهجرة ولو نزل في مكة.

ويشير إلى أسلوب من أساليب الخطابة وهو الخطاب بالإشارة كما ورد في القرآن الكريم حيث يقول عز وجل: "فأوحى إليهم أن سبحوا بكرةً وعشيًا" فجاء الخطاب بالإشارة، وهناك تفسير يقول: إنه كتب لهم على الأرض.

كما يرى أن الآية التي تمثل الخطاب في القرآن الكريم هي قوله تعالى: "ولا تخاطبني في الذين ظلموا" الذي يمثل حواراً بين ربّ العزة وسيدنا نوح عليه السّلام.

#### - د. يحيى عباينة

يرى أن مصطلح الخطاب مصطلح فنيّ أي أنه مصطلح ناضج وقارّ، وليس فيه أي نوع من الخلل الذي أشار إليه بعض المعلقين من أنه مصطلح غير مقبول على مستوى الدراسات. إلا أن محاولة الربط بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي قد تكون محاولة فيها إطالة وعدم فائدة؛ لأن المعنى اللغوي يغدو غير مفيد في مسألة خطبة النساء مثلاً أو خطب أو ما خطبك. وأن مفهوم الخطاب مفهوم واضح جداً، أهم ما فيه أنّه معنيّ بالتواصل كما أشار إلى ذلك الدكتور عودة أبو عودة، وأنه يشمل المكتوب والمنطوق كما تحدّث الدكتور عباس.

#### - طالب لغة عربية

يسأل: ما تعريف التعريب لدى مجمع اللغة العربية؟؟

#### - رد الدكتور عودة أبو عودة

فيما يخص قضية ذكورة وأنوثة اللغة يرى أن لغة القرآن الكريم لم تفرّق بين الذكورة والأنوثة، وإنما تحدّثت بأسلوب عام وأعطت للمرأة خصوصيتها في الشأن الذي يختص بها، وهذا واضح جليّ في القرآن الكريم.

كما يثني على اقتراح د. إيمان الكيلاني فيما يخص الخطاب القرآني من الناحية الأخلاقية ويرى أن هذا يحتاج إلى بحوثٍ ودراسات جيدة.

ويشير إلى أنه لم يقصد بأساليب القرآن النثر والشعر، وإنما أساليب القول التي وردت في القرآن الكريم من قصة وحوار وسرد، وأنه حين تنتظر إلى حقيقة التعبير القرآني تجد أن القرآن الكريم عمَد إلى أساليب العرب الشائعة من قولٍ في المقصودات والإيقاع الذي اعتزوا به في الوزن والقافية وفي القصة، وجاء بهذه الأساليب نفسها وأعطاهما الصورة العليا بلسان عربي مبين، وبإيقاع وتقسيمات في الآيات والجمل وافق ما صار يسمى عروض الشعر وأوزانه، كقوله تعالى: "والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلَّى"، ففي القرآن شاعرية بالمعنى الذي صرنا نعرفه ولم يكن موجوداً عند نزول القرآن الكريم. وكذلك فيما يخص القصة حيث يقول عز وجل: "نحن نقصُّ عليك أحسن القصص"، فكل قصص الدنيا لا تقف أمام العرض القرآني للقصة والأهداف التي تحققها.

كما يشير إلى كلمة وردت في كتاب "مناهل العرفان في علوم القرآن" حيث سئل أحد العلماء: ما خير تفسير للقرآن، قال: الدهر... الدهر...، وجاء هذا في معرض ردّه على من خالف البحث عن مصطلح الخطاب في التراث.

ويتابع قائلاً: القرآن كتاب للناس جميعاً وللعالمين كافة؛ فالقرآن لا يرتبط بزمن أو بعصر، والحديث عنه حديث قائم ومعاصر في كل زمان ومكان وموضوع ومستوى؛ لذلك ينبغي أن نتحدث عن الخطاب في القرآن وغيره.

ويرى أن موقفنا من الدراسات الغربية له جانبان: جانبٌ يحترم كل ما يصدر عن الدراسات الغربية لدرجة الاستهزاء بالتراث العربي أيّاً كان، وجانبٌ يقُدِّس التراث العربي ولا يأبه بكل ما تأتي به الدراسات الغربية، وكلاهما - في نظره - خاطئ؛ إذ يجب احترام العلماء الذين يضيفون للعلم بتفوقهم ودراساتهم وما يتوصلون إليه من نظريات في لغاتهم، فعندما يأتي أحدهم بنظرية النص أو الخطاب وغيرها، لا

يجوز أن نقف منه موقف عدااء بل نأخذ منه أحسن ما عنده، وإن كان ما جاء فيه  
يوافق تراثنا أو يطابقه مطابقة تامة لماذا نهمل ذلك ولا نتحدّث عنه؟؟!!

ويتفق مع الدكتور عباس فيما يخص الربط بين المعنى اللغوي والاصطلاحي،  
حيث لا بُدَّ من وجود رابط بينهما؛ إذ إن الدلالة تتطور من اللغة إلى الاصطلاح،  
كما يعتمد فهم المعنى الاصطلاحي على الإدراك لأساس الكلمة في اللغة؛ لأنَّ  
اللغة فيها مجالات للقول والفهم.